



الحملة الدبلوماسية التي تشنها الإدارة الأمريكية على أوروبا والمنطقة، من خلال جولتي الرئيس باراك أوباما وزعيم خارجيته جون كيري، يفترض أن تثير قلق إيران، الدولة التي «لا تقاوم». فقد بات واضحًا أن واشنطن التي أطلقت يد موسكو في البحث عن حل لأزمة سوريا منذ انفجارها، تقترب من التفاهم معها على المرحلة الانتقالية واعتماد تسوية تنهي حكم آل الأسد.

وتكون بذلك منحتها صورة الدولة العظمى أو الشريك اللدود الكبير الذي تسمع كلماته. يبقى أن يبادلها هذا الشريك خدمة مماثلة هي بالتأكيد في الملف النووي الإيراني. لم تتضرر إدارة أوباما حتى الآن مما جرى في سوريا بقدر ما تضررت الجمهورية الإسلامية التي يحذر قادتها هذه الأيام من أنه «لا يمكن الاحتفاظ بطهران إذا خسروا سوريا»!

فهم يدركون أن هذه الخسارة لن تقف عند حدود هذا البلد، بل تتع逮ه ربما إلى لبنان والعراق.

يعبر هذا الموقف عن مخاوف عميقة في طهران التي لا يغيب عن بالها، في ضوء تجارب أميركا من فيتنام إلى أفغانستان والعراق، أن لا وجود لدولة كبيرة «لا تقاوم»، فلا الولايات المتحدة خرجت منتصرة من هذه البلدان، ولا الاتحاد السوفيетي أيضاً ربح في كابول من قبل.

وهي إن غالٍ في الاعتزاز بالنفس، لا تنكر حرارة التحدي الذي تواجهه في العراق وسوريا ولبنان.

ومهما حاولت نشر أسلحتها إلى اليمن وأفريقيا، تعني دقة الموقف الذي قد تواجهه في أفغانستان غداً عندما تعود إليها «طالبان» أيًّا كان شكل التسوية عشيَّة انسحاب قوات حلف الأطلسي.

ولن تنفعها عراضة القوة في مناوراتها على الحدود الشمالية الشرقية.

صحيح أن إيران مارست حتى اليوم سياسة ممانعة في ساحات كثيرة بمواجهة أميركا، لكن هذا التمدد أو التقدم أو الدور لا

يمنحها حصانة بقدر ما يؤدي إلى إضعافها، وفي الداخل أولاً. بل يشبه إلى حد كبير الدور الذي مارسته سوريا على مر عقود. يومها كانت تمارس ما كان الغرب يعتبره «دوراً معطلاً» في ساحات فلسطين ولبنان والعراق، أو «دوراً مخرباً» في تركيا والأردن وغيرهما، وأصبحت اليوم ساحة لكل من يبحث عن دور. بل باتت «المحافظة الـ35» للجمهورية الإسلامية! هل بإمكان إيران أن تتعامى عن صورة الاصطفاف السنوي حول سوريا، من العراق إلى لبنان فالالأردن وتركيا، ناهيك عن مجلس التعاون الخليجي ودول «الربيع الإخواني»؟ إنه اصطلاح يهدد بغياب «الهلال الشيعي»، كما سماه عدد من القادة العرب.

ولن تنفعها محاولات الهرب إلى أمام، أو تهريب السلاح إلى نيجيريا بعد اليمن وغيرها. فالتحرك السنوي من طرابلس إلى بغداد ينذر بتسعير الصراع السنوي - الشيعي في الإقليم كله، ولا ضمان في أن تخرج الجمهورية الإسلامية منتصرة... إلا إذا كان هذا ما يقصده من رأى أن بلاده «أحدثت تحولاً في المجتمعات البشرية»! ولن تنفعها أيضاً مغافلة روسيا بلفتها إلى أن «الحضور الإيراني المقدر في المنطقة يخدمها».

بل ستجد أن موسكو لن تحدد عن الموقف الأميركي في قضية الملف النووي، تماماً مثل الصين. فإذا كانت بكين تعارض قيام دولة نووية في «بحرها» سواء في كوريا الشمالية أو اليابان، فإن روسيا أيضاً حريصة على أنها إقليمي وجمهورياتها السابقة وسط آسيا، وليس مستعدة للقبول بجرائم نوويين.

من هنا وقوفها والصين مع العقوبات الاقتصادية التي قررها مجلس الأمن على الجمهورية الإسلامية. تباطؤات الإدارة الأمريكية حيال الأزمة السورية.

ومنحت روسيا الوقت الكافي حتى اقتنعت هذه بعجز النظام عن الحسم. وتركت إيران تنخرط مباشرة في الصراع عبر تقديم الدعم إلى النظام السوري بكل أشكاله وعبر مشاركة «حزب الله» أيضاً.

كان ضغط الإدارة على إيران بلا جدوى قبل المتغيرات التي طرأت على المشهد في المنطقة.

أما اليوم فقد خرجت «حماس» من دمشق إلى القاهرة. وتکاف خصوم نوري المالكي في العراق وبات مطلبهم ليس إسقاطه فحسب بل إسقاط الدور الإيراني في بغداد، ما ينذر بتجدد حرب مذهبية، معطوفة هذه المرة على صراع مكشوف مع كردستان متحالفة مع تركيا. ويصعب بعد هذا التطور أن ترکن طهران إلى ما يجري على حدودها الغربية مباشرة. بلغت الأزمة السورية حدوداً لا يجوز بعدها أن يجازف المجتمع الدولي بسقوط الدولة بكل مؤسساتها واحتمالات التفتت، مع ما قد يجره تنامي حركات التطرف من تهديد للمنطقة بأسرها.

كما أن تفاقم المأساة الإنسانية بكل صورها، من المجازر المتنقلة إلى تدمير المدن ودفع النازحين والمهجرين في الداخل وخارج الحدود، لم يعد يحتمل السكوت.

وإذا قيض لموسكو أن تنجح في إدارة التسوية سيكون عليها أن تبادر الأميركيين في الملف النووي الإيراني، إذا كانت طهران ترفض دعوة واشنطن إلى الحوار.

لا يعني هذا أن موقف إيران سيكون مهادناً أو مساعداً. فلا شيء يشي بأنها ستقبل بتسوية. بل هي تتصرف بخلاف ذلك. لجأ حلفاؤها في العراق إلى بعث مليشياتهم استعداداً للمواجهة دفاعاً عن حكومة ائتلاف «دولة القانون». وأشارت على دمشق بإنشاء مليشيات مماثلة بدأت تأخذ مكانها في جبهات القتال.

أما في لبنان فلم يعد سراً أن خيارها كان زج «حزب الله» في الميدان... وكلها وصفات تقود إلى حروب أهلية تصب مزيداً من الزيت في النار المذهبية المستعرة في الإقليم.

كان «حزب الله» ولا يزال يدرس خياراته منذ اندلاع الأزمة في سوريا. فريق يميل إلى تفاهم مع تيار المستقبل يعيد الحكومة

إلى «الأكثرية السابقة» في مقابل طي صفحة سلاح المقاومة والحملة على هذا السلاح. لكن مثل هذا التفاهم دونه شروط، إذ لا يمكن عزله عن أطراف الصراع الدائر في المنطقة. أي أن يكون جزءاً من تفاهم أوسع بين إيران وعدد من الدول العربية في مقدمها دول الخليج.

أو أن يكون مقدمة لتفاهم إقليمي أوسع، ويستدعي طبعاً كلفة وأثماناً. وهذا ما لا توحى به الأجواء في المنطقة. وثمة فريق آخر يميل إلى التشدد ويرفض تقديم ما يسميه «تنازلات مجانية». ويرى فريق آخر أن التشدد وحده يحفظ للمقاومة ما في بيدها. ودليله إلى ذلك النتائج التي أفضت إليها أحداث السابع من أيار (مايو) 2008.

ويدرك الحزب أن سياسة «النأي بالنفس» التي لجأت إليها حكومة نجيب ميقاتي ودعمتها دول غربية انتهت إلى ما يشبه حرباً بين اللبنانيين ولكن على الأرض السورية. وقد لا تظل كذلك إذا اجتازت النار الحدود بقاعاً وشمالاً. كما هددت قيادة «الجيش الحر».

ولعل آخر ما يريد الحزب هو جره إلى مواجهات في الداخل تصيبه بمقتل هو الرافع شعار «السلاح لمواجهة إسرائيل». وليس سراً أنه احتاط ويعتظر لمثل هذا المتزلق بخيارات بديلة عن التفاهم أو المواجهة المباشرة. فقد باتت لحلفائه في معظم المناطق مجموعات من الأنصار يمكن أن تشكل واجهة تقيه الانخراط المباشر في أي إشكال أو جولة هنا وهناك. كما أن الجيش اللبناني لن يسلم بنقل الصراع حول سوريا إلى الداخل، وقد لا يكتفي بترتيبات أمنية تقليدية ما دام جميع اللبنانيين ينادونه ملجاً وحامياً.

في ضوء هذه التحديات، لا يمكن إيران التي أفادت من الغزو الأميركي لأفغانستان ثم العراق ورراكمت رصيداً إقليمياً وإذناً، أن تقعن العالم بأنها باتت دولة «لا تقهـر» في حين أنها تواجه وضعاً مقلقاً اقتصادياً وسياسياً في الداخل، ويوواجه دورها في العراق ولبنان وسوريا تهديداً حقيقياً وقاتلـاً. لا يكفي أن تفخر بإنجازاتها الصاروخية فوق حطام اقتصاد متهاـو وأمامها ما آلت إليه تجربة الاتحاد السوفيـاتي.

لم يعد بإمكانها الـرهـان على الانكـفاء الأميركي العسكري عن المنطقة. ولا يمكنها أن تقـنع روسـيا بأن مصالـحـها معـها تـقدم على مصالـحـ موسـكو معـ الولاياتـ المتـحدـةـ وأورـوباـ عمـومـاـ. وإذا قـيـضـ للـقـابـلةـ الروـسـيةـ تـولـيدـ تـسوـيةـ لأـزمـةـ سورـياـ ستـجدـ طـهرـانـ نـفـسـهاـ معـزـولـةـ تـاماـ ماـ لمـ تـرضـخـ لـمـوجـبـاتـ هـذـهـ التـسوـيـةـ، مـهـماـ عـانـدـتـ وـبـالـغـتـ فيـ تـقـيـرـ قـوـتهاـ. لاـ يـمـكـنـهاـ أـنـ تـخـوضـ حـرـوـباـ عـلـىـ كـلـ الجـبهـاتـ دـفـعـةـ وـاحـدةـ. عـنـدـماـ يـحـينـ وـقـتـ الصـفـقـاتـ بـيـنـ الـكـبـارـ، عـلـيـهـاـ أـنـ تـقـنـعـ بـأـنـهـاـ لـاـ يـمـكـنـهاـ أـنـ تـضـعـ نـفـسـهاـ فـيـ مـصـافـ هـؤـلـاءـ.

لم تدفعها سياسة العقوبات إلى الرضوخ لشروط خصومها، فهل تعاند حـيـالـ تـاكـلـ دورـهاـ فيـ الإـقـلـيمـ بعدـ تـاكـلـ اقـتصـادـهاـ؟
أـلـاـ تـعـقـدـ بـأـنـهـاـ تـجـازـفـ بـضـيـاعـ أـورـاقـ جـهـدـ لـاـمـلـاكـهاـ عـلـىـ مـرـسـنـ؟
أـلـاـ تـجـازـفـ بـخـسـارـةـ وـرـقـةـ «ـحـزـبـ اللهـ»ـ فـيـ سـورـياـ فـتـخـسـرـ مـعـهـاـ وـرـقـةـ فـلـسـطـينـ؟
ما نـفـعـ هـذـهـ أـورـاقـ ماـ لـمـ تـصـرـفـ فـيـ أـيـامـ كـهـذـهـ؛ وـهـلـ تـعـقـدـ طـهرـانـ بـأـنـ الـكـبـارـ سـيـسـلـمـونـ لـهـاـ بـتـغـيـرـ المشـهـدـ العـامـ فـيـ الشـرـقـ الأـوـسـطـ؟

إـصـرـارـهاـ عـلـىـ ثـمـنـ كـبـيرـ عـشـيـةـ اـجـتمـاعـاتـهاـ مـعـ مـجـمـوعـةـ الـخـمـسـةـ زـائـدـ وـاحـدـ فـيـ كـاـرـخـسـتـانـ يـعـنـيـ أـنـهـاـ لـيـسـتـ مـسـتـعـدـةـ بـعـدـ أـوـ هـيـ تـنـتـظـرـ إـلـيـ حـيـنـ عـبـرـ اـسـتـحـقـاقـ اـنـتـخـابـاتـهاـ الرـئـاسـيـةـ فـيـ حـزـيرـانـ (ـيـونـيـوـ)ـ الـمـقـبـلـ...
وـلـكـ هـلـ تـنـتـظـرـ سـورـياـ حـتـىـ ذـلـكـ الـيـوـمـ؟

الحياة

المصادر: